دو فصلنامه مطالعات ادب اسلامی
دوره ۲، شماره ۲، پیاپی ۴، بهار و تابستان ۱۴۰۲

نصف سنوية دراسات الأدب الإسلامي
السنة ۲، العدد ۲، التسلسل ۴، ربيع وصيف ۲۰۲۳

عوامل اختلاف صيغ الجمع (جمعي السلامة والتكسير) في المفردات القرآنية

علي أكبر فراتي*[۱] (الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طهران، إيران)
محمد حسن فؤاديان[۲] (الأستاذ المشارک بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طهران)

DOI: 10.22034/JILR.2023.139509.1075

تاريخ دريافت: ۱۴۰۲/۰۵/۱۴ تاريخ الوصول: ۲۰۲۳/۰۸/۰۵
تاريخ پذيرش: ۱۴۰۲/۰۹/۱۱ صفحات: ۹۹-۱۱۶ تاريخ القبـول: ۲۰۲۳/۱۲/۰۲

الملخص

إن من وجوه إعجاز القرآن الهامة الجانب اللغوي، وبما أن اللغة هي المادة الأصلية في بناء كل نص أدبي، فالقرآن الكريم المتبوء ذروةَ البلاغة يجدر بأن يدرس من ناحية البلاغة االلغوية ودقائقها وخصائصها، فإذا أنعمنا النظر في استعمال الجموع في القرآن نجده تارة يتبع منهج العرب في كلامهم وهو الغالب، وتارة نرى لسان القرآن ذا منهج خاص في اختيار المفردات جمعا وإفرادا، وجمعَ سالم وتكسير، بحيث لا ينطبع بطابع لغوي معهود في النصوص اللغوية والأدبية الأخرى ولا المعاجم اللغوية. هذا هو الذي يجب على دارس التفسير اللغوي للقرآن أن يتعرض له بدقة، وهذه المقالة تسعى لإلقاء الضوء على الدقة اللغوية في القرآن في استعمال الجمع والمفرد واختلاف الدلالة بين الصيغ المختلفة لجموع لفظة واحدة، فبعض الكلمات المفردة ـ جامدة كانت أو صفة ـ تجمع جمع سالم وتكسير، فمنها ما استخدم له في القرآن جمع واحد، ومنها ما وردت له عدة جموع في مواطن وسياقات مختلفة، فالمقالة تتناول موضوع الفروق الدلالية بين أنواع الجموع وأوزانها وحدّد الموضوع في الجمعين السالم والمكسر في الألفاظ التي لها في القرآن كلا الجمعين حتى يتبين الإعجاز اللغوي للقرآن، والعوامل المؤثرة في اختلاف دلالة جمعي السلامة والتكسير بصيغها المختلفة منها العامل الدلالي الذي ينقسم إلى الاسمية والفعلية، والحدوث والثبوت، والكثرة والقلة والعامل الصوتي أي الصوت والإيقاع والموازنة، والمنهج القرآني الخاص في استعمال المفردات واستخدام نوع الجمع والعامل النحوي وقد يكون هناك أسباب سياقية أخرى لم نتعرض لها.

الكلمات المفتاحية: المفردات القرآنية، أوزان الجموع، جمعا السلامة والتكسير، عوامل الفروق الدلالية، الإعجاز اللغوي.

[۱] الكاتب المسؤول؛ البريد الإلكتروني: a.forati@ut.ac.ir
[۲] البريد الإلكتروني: foadian@ut.ac.ir

عوامل اختلاف کاربرد صیغه‌های جمع سالم و مکسر در مفردات قرآن

چکیده

یکی از جنبه‌های مهم اعجاز قرآن، جنبه لغوی آن است و از آنجاکه لغت، ماده اصلی در ساخت هر متن ادبی است، قرآن کریم که در اوج بلاغت است، سزاوار است که از جهت بلاغت واژگانی، دقایق و ویژگی‌های آن مورد مطالعه و بررسی قرار گیرد. اگر با دقت به کاربست جمع در مفردات قرآنی بنگریم، می‌بینیم که غالبا بر شیوهٔ عرب در سخن گفتن منطبق است، اما گاهی نیز زبان قرآن در انتخاب واژگان جمع و مفرد، و نیز جمع مکسر و سالم رویکرد و شیوهٔ ویژه‌ای دارد، به گونه‌ای که بر اساس یک خصلت زبانی شناخته شده و معمول در متون لغوی و ادبی دیگر یا لغتنامه‌ها نیست. این همان چیزی است که پژوهشگر تفسیر لغوی قرآن باید با دقت به آن بپردازد.

این مقاله در پی آن است که دقت واژگانی قرآن را در کاربرد جمع و مفرد و تفاوت معنایی گونه‌های مختلف جمع‌های یک کلمه تبیین کند. برخی کلمات – جامد یا مشتق – هم جمع سالم دارند و هم مکسر. از برخی کلمات در قرآن یک جمع آمده است، و برای برخی دیگر از کلمات چند جمع آمده که در جایها و بافت‌های مختلف متفاوت به کار رفته است. این مقاله به موضوع تفاوت‌های معنایی و دلالی انواع جمع و وزن‌های مختلف آن می‌پردازد، و به طور خاص کلماتی را بررسی می‌کند که در قرآن دارای هر دو جمع سالم و مکسر هستند، تا اعجاز لغوی قرآن و عوامل مؤثر در تفاوت معنایی دو جمع سالم و مکسر در اشکال مختلف آن دو تبیین گردد. برخی از دلایل اختلاف کاربرد صیغه‌های جمع از این قرار است: عامل معنایی که به اسمی و فعلی تقسیم می‌شود، و حدوث و ثبوت، کثرت و قلّت، عامل آوایی، یعنی صدا، موسیقی و موازنه کلام، و نیز شیوهٔ خاص قرآن در استفاده از واژگان، و استفاده از نوع جمع. عامل بعدی عامل دستوری است، ممکن است دلایل و عوامل بافتاری دیگری نیز وجود داشته باشد که به آن نپرداخته‌ایم.

کلیدواژه: مفردات قرآن، اوزان جمع، جمع سالم و مکسر، عوامل تفاوت معنایی، اعجاز لغوی.

مقدمه

مذ ظهر الإسلام ونزل القرآن قد اهتم المسلمون ببيان المفردات القرآنية حتى وصلوا إلى أنها جزء من الإعجاز البياني في الكتاب الكريم، فاللغة هي الحجر الأساس واللبنة التحتية في كل بناء أدبي، وصرح القرآن لا يستثنى من هذا الأمر وإنما هو في ذروة البلاغة ولتكن ألفاظها كذلك سامية معجزة.

ومبحث الفروق اللغوية قد اشتغل به بعض علماء اللغة وقد وقع الخلاف بينهم في ترادف الألفاظ وعدمه وتضاربت الآراء واختلفت فيه، (راجع في الترادف والفروق والآراء حولهما: الشايع، ۱۹۹۳) ولكن الذين قالوا بالفروق بين كل لفظتين اثنتين متقاربتين معنى، فقد رأوا القرآن الذي نزل ﴿**من لدن حكيم عليم**﴾ لا ينبغي أن تكون مفرداته مترادفة المعنى مختلفة اللفظ بدون عامل أو سبب إلا التفنن كما زعمه البعض وقالوا في تفاسيرهم.

والجمع من الظواهر اللغوية الهامة التي نعثر فيها على كثير من هذه الدقائق في اختيار الألفاظ القرآنية بصورة خاصة، ونحن في هذا المقال نسعى إلى الحصول على بعض ما تسبب في إيثار لفظ جمع على الآخر واقتصرنا في بحثنا هذا على جمعي السلامة والتكسير، فلم نخض في سائر الجموع لأن الموضوع واسع لا يفسح المجال للتوسع في الجموع الأخرى، ولم نغص في أنواع مختلفة من جموع التكسير وإن كان ذا أهمية أن يبحث فيها.

سؤال التحقيق

أما الذي نحن بصدده في هذه العجالة فالعوامل المؤثرة في اختلاف دلالات صيغ الجمع وصور هذا الاختلاف، فإذا كان لمفردة جمع سلامة ولها جمع تكسير واحد أو أكثر، فكيف أن استخدم تلك المفردة في القرآن تارة على جمعها السالم وتارة على المكسر منه، كما أن الجموع المكسرة قد استخدمت في القرآن الكريم بمختلف صيغها. أما السؤال الأساسي الذي ينبغي طرحه والإجابة عنه هو:

- ما هي عوامل اختيار الجمعين السالم والمكسر وإيثار بعضهما على بعض، وما الفروق بينهما؟

فلنحدّد مجموعة من المفردات القرآنية التي لها كلا الجمعين (سالما ومكسرا) في الاستعمال القرآني، حتى نقوم بمقارنتهما دلاليا وندرس الفروق بينهما على صعيد لغوي قرآني.

سابقة البحث

ليس الموضوع هذا مما لم يطرقه أحد، فموضوع الترادف والفروق اللغوية مطروق بعامته، مثل كتاب الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري و فروق اللغات في التمييز بين مُفاد الكلمات للشيخ نعمة الله الجزائري إلا أن هذين الكتابين وهما من أهم مصادر الفروق لم يتناولا ما نحن بصدده، أما من المصادر الأخرى التي تعرضت لهذا الأمر يمكن الإشارة –كأهمها– إلى كتابين قد اختصّ حجم قصير منهما إلى موضوع الفرق بين استعمال هذين الجمعين، هما:

السامرائي، فاضل صالح (٢٠٠٧)، *معاني الأبنية في العربية*. عمان: دار عمار.

الدوري، محمد ياس خضر (٢٠٠٦)، *دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني*. بيروت: دار الكتب العلمية.

فالكتاب الأول قد تصدى لمبحث الجمع سالما ومكسرا من ١١٣ إلى ١٢٩ وكذلك بحث عن أوزان التكسير ودلالاتها من ١٣٠ إلى ١٤٩. ولكننا مع الإفادة من هذا الكتاب قد أضفنا إليه بعض ما لم نجد فيه واقتصرنا البحث على الفرق بين المكسر والسالم عندما كان اللفظ له مكسر وسالم في القرآن الكريم، ولم نحصر البحث على الأوزان وإنما على الأسباب والعوامل المؤثرة في اختلاف اختيار نوع الجمع سالما أو مكسرا، وهذا هو الوجه المميز لهذه المقالة.

أما الكتاب الثاني فقد بحث عن أبنية الجموع من الصفحة ٢٥٥ إلى ٢٧٥، وقد أشار فيه إلى بعض الأوزان والفرق بينهما في الجموع المكسرة ولم يتعرض للفرق بين السالم والمكسر، ولم يستوف البحث وإن كان مفيدا .

الجمع تعريفه وأقسامه في القرآن الكريم

أما الجمع فهو ظاهرة لغوية تعدّ في كل لغة ومنها العربية ذات شأن معجمي وتصريفي وله دوره في بناء الكائن اللغوي، وهو في العربية يطلق على ما زاد على الاثنين، فكل كلمة في أحد تقسيماتها إما مفرد أو مثنى أو مجموع، ومما يلفت تعدد ما يدلّ على المجموع في اللسان العربي، مما زاد هذه اللغة ثروةً كما جعلها تبدو في النظرة الأولى معقدة صعبة في استخدام مفرداتها، ففي تصنيف عام ينقسم الجمع إلى سالم ومكسّر؛ ولكن الجمع لا ينحصر في هذين القسمين وإن كان هذان القسمان أيضا لهما أقسامهما التي سنذكرها في موضعها. واستخدم في القرآن الكريم معظم أقسام الجمع كما يلي:

- جمع السلامة؛ وهو اسم يدل على ثلاثة فأكثر، وهو نوعان؛ المذكر وهو يعرف بزيادة الواو والنون في حالة الرفع مثل المؤمنون، والياء والنون في حالتي النصب والجر مثل المؤمنين، والمؤنث وهو يعرف بزيادة الألف والتاء كمؤمنات، وهذه الجموع كثيرة في القرآن الكريم.
- الملحق بجمعي السلامة وهذه الجموع قليلة وفي الإعراب يتبع الجمع السالم وأما في الأصل لا تتحقق فيها شروط الجمع السالم، مثلا العالمين ظاهرها الجمع السالم والحقيقة أنها ليست بجمع، لأنها تدل على أقل من مفردها ومفردها تدل على أكثر من جمعها، وفي بعضها دلائل أخرى.
- جمع التكسير؛ وهو ما يدل على ثلاثة فأكثر، وله مفرد يصاغ بتغيير صيغته عند الجمع نحو أنفس وعلماء وأعناق، وهو قسمان القلة والكثرة.
- صيغ منتهى الجموع نوع من جمع التكسير نحو سنابل وأصابع ومساجد ونحوها.
- جمع الجمع؛ وهو جمع للجمع، ويدل على أكثر من تسعة نحو بيوتات ورجالات، ولا يوجد في القرآن إلا رجالات في اختلاف القراءات.
- اسم الجمع؛ وهذا الجمع يدل على أكثر من اثنين، وليست صيغته على وزن خاص بالتكسير ويمكن أن يكون مفردها من معناه دون لفظه، نحو قوم وفريق وإبل. وهناك نوع منه يستوي فيه الواحد والمجموع، نحو الفلك، قال تعالى: ﴿**الفلك المشحون**﴾ مفردا و﴿**الفلك التي تجري**﴾ مجموعا؛ وكذلك الضيف والطفل.
- شبه الجمع (اسم الجنس الجمعى)، وهو يتضمن معنى الجمع، ويدل على الجنس ومميّز من مفرده بالتاء أو الياء المشدّدة، نحو ثمر وثمرة أو عرب وعربيّ.
- الجموع الذي لا مفرد له، نحو أبابيل وما قيل في مفرده فيه خلاف.
- الجمع الذي يدل على اثنين فأكثر (يسمّى الجمع عند اللغويين) نحو ﴿**وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدينَ**﴾ (القرآن: ٢١/ ٧٨) حيث جاء بضمير الجمع في "لحكمهم" وهما اثنان، وهذا الجمع ليس في الحقيقة من أقسام الجمع وإنما هو معاملة المثنى بالجمع وقد ورد في كلام العرب والأدب.
- المفرد في مقام الجمع، حيث يقوم المفرد مقام الجمع في بعض الأحيان، قال الله تعالى: ﴿**وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهيرٌ**﴾ (القرآن: ٦٦/ ٤) فظهير هنا بمعنى ظُهَراء.

عوامل اختلاف صيغ الجمع وأبنيته

بالنظر إلى الجموع القرآنية التي سبق ذكرها كعينة البحث، يمكن الحصول على ما يلي من العوامل التي تسفر عن الاختلاف في دلالة كل منها حسب موضعه ووفق السياق الذي ورد فيه ذلك الجمع.

الملاحظة١: على أننا إذا تحدثنا عن هذه العوامل لا يعني أننا نحصرها فيما نعدّه في ما يلي، وإنما نبحث عما عثرنا عليه ووجدنا من العوامل، ذكره العلماء سابقا أو لم يسبق إليها أحد، والله أعلم بكلامه ومقاصده، وقد نرى بين هذه العوامل أو بعبارة أخرى بين بعض الأبنية أن هناك غير واحد من العوامل فقد يكون عاملين أثرا في اختيار صفة وبنية للتعبير عن جمع كلمة قرآنية، وهذه ملاحظة هامة يجب التنبيه به والانتباه إليه قبل الخوض في عدّ العوامل؛

الملاحظة٢: كما يجب العناية بأنه ليس كل ما يجمع له كلا الجمعين السالم والمكسر، فهناك ما لم تقُله العرب في جمع سالم أو بالعكس، وهذا ما ورد تفصيله في المصادر. (راجع: الزمخشري، ٢٠٠٤، ١٧٤ وما بعدها). وإليك –بعد هاتين الملاحظتين– بعض أهم عوامل الاختلاف في صيغ الجمع والأمثلة عليها:

١) العامل الأول: العامل الدلالي

من العوامل الأولية التي لها أثرها في اختيار الصيغة الخاصة لمفردة خاصة، ما يكمن في الدلالة التي يقتضيها السياق الخاص في موضع خاص وموضوع بعينه، فالدلالة أي المعنى هي التي تعيّن اختيار الصيغة والبنية؛ وإن كان من الممكن كما مر بنا أن يكون للفظة واحدة عدة عوامل، ومن هذه الدلالات ما يلي:

الف) الكثرة/ القلة (كمًّا ونوعًا)

مما يبحث عند الكلام على جموع التكسير . وتقدم بنا نبذ منه . جمع قلة وجمع كثرة، والقلة لها أوزانها المعدودة الأربعة خلافا لأوزان الكثرة، إلا أن القلة والكثرة المذكورتين هنا غير ما يدرس في اللغة والصرف كأنواع الجموع المكسرة، وإنما المراد منهما دلالة جمعي التكسير و السلامة على القلة والكثرة، فإذا قلنا عن الفرق بين الشهور والأشهُر . وكلاهما جمع تكسير . فقد تكلمنا على اختلاف الأوزان والدلالة في نوع واحد من الجمع وهو التكسير، إلا أننا .كما سبق بنا ونعيد ذكره تأكيدا . حدّدنا الموضوع هنا في دراسة الفروق بين جمعي السلامة والتكسير المستعملين في التنزيل العزيز دلالةً وبنيةً.

أما بالنسبة للفرق بين السلامة والتكسير فمن أول ما ذكر في المصادر ويخطر بالبال أن الغالب في جمع المكسر الكثرة وفي جمع السالم القلة؛ قال الزمخشري في المفصل في القول عن جمع القلة والكثرة: «ومنه ما جمع بالواو والنون، والألف والتاء.» (الزمخشري، ٢٠٠٤: ١٧٥) وبسطه ابن يعيش قائلا: «ومن ذلك جمعا السلامة، بالواو والنون نحو الزيدون والمسلمون، والألف والتاء فهذان البناءان أيضا من أبنية القلة، لأنهما علة منهاج التثنية، والتثنية قليل، وكانا مثله.» (ابن يعيش، ، ٥: ١٠) ثم يأتي بالدليل على كون أوزان جموع القلة للقليل بالأمرين: أحدهما أنك تصغّرها على لفظها، فتقول في تصغير أفلس أفيلس، و...، ولو كانت للكثير لرددتها إلى الواحد ثم تجمعها بالواو والنون إن كانت لمن يعقل، وبالألف والتاء إن كانت لغيره نحو قولك في رجال رجيلون و...، والثاني: أنك تفسّر به العدد القليل....، تقول: ثلاثة بنين وثلاث شجرات.» (نفسه)

وهناك من قال بالتفصيل في هذا الأمر فقيّد كون الجمع السالم دالّا على القلة بأن هذه الدلالة إنما تصدق في الجوامد، أما في الصفات فإن دلالته على القلة ليست مطردة، بل نتطيع أن نقول: إن الأصل فيه عدم دلالته على القلة. (راجع: السامرائي، ٢٠٠٧: ١٢٦)

ومن شواهدها القرآنية:

راسيات / رواسي: جاءت "رواسي" في تسع من الآيات القرآنية وهي في جميعها بمعنى الجبال الشمّخ البواسق، دون ذكر الموصوف، منها: ﴿**وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فيها رَواسِيَ**...﴾ (القرآن، ١٥: ١٩) وإنما استعملت في موضع واحد صفة «للقدور الثابتات في الأرض التي لا تنزل من فوق أثافيها لتداول الطبخ فيها صباح مساء» (ابن عاشور، ١٩٨٤، ٢٢: ٣٢) وهي تشبيه في الثبات وعدم الاضطراب بالجبال. ومما قيل في هذين الجمعين للراسية قول صاحب التحقيق حيث بيّن الفرق بينهما على سبيل القلة والكثرة: «أمّا ذكر المادّة في هذه الآية الكريمة بصيغة فاعلات دون فواعل: فانّ فواعل صيغة لمنتهى الجموع والكثرة، ولا مقتضى لها فيها.» (المصطفوي، ١٤٣٠ق، ٤: ١٤٧). ويمكن أن يكون لهذا الاختلاف وجه آخر سنبيّنه في موضعه.

خطايا / خطيئات: قد نرى في الآيتين من القرآن – في قصة واحدة وبعبارات تكاد تكون متماثلة – بعض الاختلاف ومنه الإتيان بجمع "الخطيئة" سالما في آية ومكسرا في أختها؛ والآيتان: خطايا: ﴿... **نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ** ...﴾ (القرآن، ٢: ٥٨) خطيئات: ﴿... **نَغْفِرْ لَكُمْ خَطيئاتِكُمْ**... ﴾ (القرآن، ٧: ١٦١). إن صاحب التحرير والتنوير اعتبر هذا الاختلاف بين الآيتين تفننا في حكاية القصة لنشاط السامع. (ابن عاشور، ١٩٨٤، ٨: ٣٢٦) إلا أن السامرائي يعتقد أن المقام في البقرة يتقضي

التكثير والتفضل، بما جاء في أول الآية بـ "قلنا" ومن شأن الله غفران الذنوب الكثرة، والثاني لا يقتضي ذلك حيث جاء بـ "قيل"، ومقام التفضل في البقرة أكبر وأوضح بما فيهما من البون في بعض التقديم والتأخير. (راجع: السامرائي، نفسه: ١٢٢)

السنابل / السنبلات: جاءت هاتان الكلمتان في موضوعين مختلفين إلا أنهما مع اختلاف صيغة الجمع فيهما يشتركان في العدد، فاستعملتا في "سبع" تارة بالسلامة عندما يتحدث عن رؤيا ملك مصر حيث قال: ﴿**سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ**﴾ (القرآن، ١٢: ٤٣ و٤٦) وأخرى بالتكسير عند تشبيه الإنفاق بإنبات الحبة، إذ قال: ﴿**كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ**﴾ (القرآن، ٢: ٢٦١). فسياق مضاعفة أجر الإنفاق بأنه يزكو وينمو ويكثر ولا يتوقف عند السبع فهو من مواضع التكثير والبركة، فاقتضى الكثرة كما أتى بالتكسير، وعندما يتحدث عن سبع سنين لا يتجاوزها بالتكثير وليست السبع على سبيل المبالغة وإنما هي كما وقع فجاء بالسلامة الدالة على القلة كما يطلبها العدد. غير أن هناك ملاحظة طريفة بالنسبة لـ"السنبلات" وما يضاهيها سنشير إليها في موضعها.

ب) الفعلية / الاسمية

من الأسباب الدلالية التي تقتضي الاختلاف بين صيغ الجمع سالما ومكسرا، هو الدلالة على الحدوث مقابل الثبوت،. فهناك بعض السياقات القرآنية تدل على القيام بأمر أو لها دلالة على حدث، بينما نجد لبعضها الآخر دلالة الثبوت وتثبت الوصف فيها دون النظر إلى جهة الحدوث، فجمع الصفات جمع سالم هو الأكثر والأقوى والأصل لمشابهتها الأفعال معنى وعملا (راجع: ابن يعيش، نفسه، ٥: ٢٤؛ الرضي الاسترابادي، ١٩٨٢، ٢: ١١٦) وإذا جمعت كذا للدلالة على مشابهة الفعل في القيام بعمل أو حدوث حدث، وهذا سبب اختلاف كثير من جموع الألفاظ القرآنية.

إن هذه الفعلية والاسمية اللتين تبلورتا في النوعين من الجمع قد نرى وجه الحدوث والثبوت يغلب فيهما وقد نجد وجه الاسمية والوصفية غالبا، ويحتمل الجمع بينهما؛

ج) الحدوث / الثبوت (الوصفية / الاسمية البحتة)

يمكن القول: إن بعض الجموع المكسرة لها دلالة الاسم إلا أنها لا تستلزم وجه الثبوت، وإنما تدلّ باسميّتها على مهنة أو حرفة، فإذا قلنا في جمع "الطالب" (الطلاب) جمعا مكسرا فالمقصود منه اسمٌ

لصنف خاص من الناس مهنتهم طلب العلم، وأما جمعه جمعا سالما (الطالبون) يقصد به الحدوث أي الذين يطلبون؛ منها ما يلي:

كافرون / كفّار: من المفردات التي كثيرا ما ورد استعماله في التنزيل العزيز "الكفر" وما يشتق منه فعلا واسما، والوصف به أي الكافر قد أتى في آيات كثيرة وقد جمع جمعي السلامة والمكسر (في صيغتين الفُعّال والفَعَلة). والذي يهمنا هنا هو الفرق بين الكافرين جمع سالم، وبين الكفّار جمع مكسّر، قال صاحب التحقيق: «انّ المكسّر يدل على الّذين تثبّتوا في الكفر ولا يلاحظ فيه إلّا نفس الكفر. والسالم يلاحظ فيه جهة القيام وحدوث الحدث بالذّات.» (المصطفوي، نفسه،١٠: ٩١)

فلمّا استعمل سالما تعلق به الجار والمجرور كفعله، فقال: ﴿**يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحيطَةٌ بِالْكافِرِين**﴾ (القرآن، ٢٩: ٥٤) يعني بالذي هم يكفرون يصف فعلهم وما يحدث عنهم من الكفر والجحد. وإذا أتى مكسّرا لم يعمل كما هو الشأن في الاسم والجوامد قال: ﴿**إِنَّ الَّذينَ كَفَرُوا وماتُوا وهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ والْمَلائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعين**﴾ (القرآن، ٢: ١٦١)

ففي الأول يصف فعلهم وكفرهم، وفي الثاني يصفهم بالكفر والتثبت فيه. كما أن القرآن لم يستعمل الحضّار سالما وإنما قال الحاضرين، حيث قال: ﴿**ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ**﴾ (القرآن، ٢: ١٩٦) لآن الحضور حدوث وفيه النظر إلى جهة القيام بالحضور.

فلم يأت في القرآن لفظ الحُضّار أو الحضور بمعنى الجمع.

ساجدون / سجّد: ومن شواهد هذا الأمر الساجدون والسُّجّد. قال الله تعالى عند الأمر بسجود الملائكة: ﴿**قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْليسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدينَ**﴾ (القرآن، ٧: ١١) فإنهم سجدوا امتثالا لأمر ربهم، والكلام هنا على كونهم ساجدين في ذاك الوقت وحدوث الفعل، ولكنه لما تحدّث عما يجب أن يكون الساجد متثبتا فيه وهو نفس السجود، جاء بالمكسّر، والساجد يجمع على السُّجود والسُّجَّد.(ابن سيده،١٤٢١، ٧: ٢٦١)

فالقرآن عندما نظر إلى السجدة باعتباره فعلا حادثا من قوم استعمل جمعا سالما يصفهم بذلك الفعل وقيامهم به، وعندما نظر إلى كونهم متثبّتين فيها استعمل مكسرا، فقال مرة في قصة يوسف مع أخيه ورؤياه: ﴿**رَأَيْتُهُمْ لي ساجِدينَ**﴾ (القرآن، ١٢: ٤) وقال مرة أخرى: ﴿**وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً**﴾ (القرآن، ١٢: ١٠٠) ومنها يمكن الاشارة إلى "راكعون" و"ركّع".

وكذلك عدّ السامرائي "الراسيات" من الدلالة على الوصفية والفعلية والرواسي على الاسمية، إلا أن هناك بون يسير بين الحدوث والثبوت وبين الاسمية والفعلية، قائلا: «فأنت ترى أنه لما أراد الاسمية

جمعها جمع تكسير ولما أراد الحدث جمعها جمعا سالما» (السامرائي، نفسه: ١٢٨) وهذا ما أشرنا إليه من احتمال اجتماع عدة عوامل في كلمة واحدة.

خازنون / خَزَنة: إذا أمعنّا النظر في سياق الآيات القرآنية التي احتوت على هذين الجمعين، نجد أن المكسر استعمل للملائكة الذين مهنتهم كذلك، ولكن إذا وصف غيرهم بفعل الخزن لا يقول إلا جمعا سالما، فقال: ﴿...**كُلَّما أُلْقِيَ فيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذيرٌ**﴾ (القرآن، ٦٧: ٨) وكذلك في (القرآن، ٣٩ :٧١ و٧٣) فهم الموكّلون بشؤون جهنم.ولنا أن نقول: إن المهنة أيضا يستدعي الثبوت والاستمرار وهذا صحيح.

أما في الآية الأخرى فيجمع الخازن على السلامة بـ "خازنين" والمخاطب الناس: ﴿**وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنينَ**﴾ (القرآن، ١٥: ٢٢) فيه النظر إلى فعلهم في خزن الماء عندهم وليس يشير إلى ثبوت ولا استمرار ولا مهنة يشتغلون بها، وإنما نفى عنهم حدوث عمل الخزن للماء لعدم تمكنهم وقدرتهم عليه.

٢) العامل الثاني: المنهج القرآني الخاص

إنّ من ميزات لسان القرآن في المفردات استعمالاته الخاصة التي قد لا نجدها في متن اللغة والمصادر اللغوية، فعلى سبيل المثال استعمال الريح والرياح مفردا وجمعا، حيث «عامّة المواضع الّتي ذكر الله تعالى فيها إرسال الرّيح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب، وكلّ موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرّحمة.» (الراغب، ١٤١٢ق: ٣٧٠)

أما الاستعمال القرآني الخاص في الجمع سالما ومكسرا فيمكن تصنيف عوامله على النحو التالي:

الف) الجمع المذكر السالم والصفات الإلهية في القرآن

إنا إذا أمعنّا النظر في الآي القرآنية واستعمال الجمع فيها وجدنا أن الله تعالى عندما وصف نفسه بصورة الجمع على التعظيم والتشريف استعمل جمع السلامة في عامة المواضع دون التكسير. فمنها أنه تعالى قال: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ**﴾ (القرآن، ١٥: ٩) ولم يقل حفظة، كما قاله لملائكة في قوله: ﴿**وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً**﴾ (القرآن، ٦: ٦١)

وقال في وصفه سبحانه بالعلم "العالِمين" دون العلماء، فقال: ﴿**وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْري بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتي بارَكْنا فيها وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمينَ**﴾ (القرآن: ٢١/ ٨١) أو قال: ﴿**وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمينَ**﴾ (القرآن: ٢١/ ٥١)

الشاهدين / الشهود: ولكننا عندما نقرأ الآيات المشتملة على وصف الله بصفاته، تواجهنا صفة على الجمع المكسر حيث قال تعالى شهود ولم يقل الشاهدين: ﴿**وَ ما تَكُونُ في شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفيضُونَ فيهِ وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبينٍ**﴾ (القرآن، ١٠: ٦١)

فالنظرة الأولى يوهمنا أن "شهودا" وهو وصف للضمير "نا" وهو راجع إلى الله تعالى، إلا أن هناك من يقول إنه ليس الشهود راجع إلى الله فحسب، وإنما يدل على شهود معه، ففي تفسير الميزان: «و قد وقع في قوله: ﴿**إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً**﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير، و النكتة فيه الإشارة إلى كثرة الشهود فإن لله شهودا على أعمال الناس من الملائكة و الناس و الله من ورائهم محيط، و العظماء يتكلمون عنهم و عن غيرهم للدلالة على أن لهم أعوانا و خدمة. (الطباطبائي، ١٤١٧ق،١٠: ٨٧) وهناك من يرد على هذا القول بأن «﴿**كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودا**﴾ تعني جمعية الصفات، و ليست جمعية الذات، أم الذات مع غيرها من الذوات التي هي شهود فرعية بإذنه تعالى كالملائكة و النبيين و الأعضاء العاملة و الأرض، فإن الله لا يردف نفسه بخلقه فضلا عن أن يأتي بصيغة تجمعه إلى خلقه.» (الصادقي الطهراني، ١٣٦٥ش، ١٤: ١٢١) ولكنه أيضا لا يرفض احتمال أن يكون الجمع فيها «إعلاما لسائر الشهود أن يشهدوا ما يعملون». (المصدر نفسه)

أما وجه الجمع بين القولين السابقين فأن "شهودا" –كما مر بنا– خبر "كنا" والضمير المتصل أعني "نا" يدلّ على من هو يشهد وأعوانه، والشاهد الأول هنا الرسول لأن الله يأمره بأن يقول: إنا كنّا نشهد أعمالكم أنا ومن معي، فيكون الشهود على قول الله بعده ﴿**ما يعزب عن ربك**﴾ يدل على أن الشهود هم الرسول والمؤمنون والملائكة والدليل الآخر أن الجمع المكسر لا يستعمل في القرآن لله وحده، فهو يطلق على غير الله أم عندما يكون الوصف شاملا الخالق والخلق.

كما أن الله عندما قال في كونه شاهدا لحكم الأنبياء جميعا: ﴿**وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدينَ**﴾ (القرآن: ٢١/ ٧٨) جاء بلفظ الجمع السالم، إذ لا معنى هنا و في هذا المقام وهو مقام الشهادة لأحكام أصدروها الأنبياء في قضائهم طوال

رسالتهم ونبوتهم، لا معنى للجمع بين الله وخلقه من الأنبياء والملائكة والمؤمنين أن يشهدوا على الأصفياء من خلقه وهم الأنبياء، فهذه الشهادة لا تليق ولا تنبغي لغيره وتنحصر فيه سبحانه.

ب) بالقوة / بالفعل

إن بعض الجموع اختلف استعمالها في القرآن الكريم على اختلاف كون الوصف بالقوة والقابلية في الموصوف أو كونه بالفعل، ومن أمثلتها هنا ما يلي:

ميّتون / أموات / مَوتى: إذا نظرنا إلى الآي القرآنية نجد أنه كل المواضع التي ذكر فيها الجمع السالم لهذه الكلمة خاصة بالموت في المستقبل على أن الميّت يجمع سالما استعمالا للأحياء الذين كتب عليهم الموت ولما يموتوا، و"الميْت" بالتخفيف يستعمل للميت فعلا، قال مؤلف المصباح المنير: «أَمَّا الْحَيُّ فَـ"مَيِّتٌ" بِالتَّثْقِيلِ لَا غَيْرُ، وعَلَيهِ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ (القرآن، ٣٩: ٣٠) أي سَيَمُوتُون (الفيومي، ١٤١٤ق، ٢: ٥٨٣)

فخص القرآن "الموتى" بمن ماتوا حقيقة، و"الأموات" بعامة الناس موتى وأحياء، واستعمل "الميّتين" للذين لم يموتوا بعد، فكما أن استعمال هذه الكلمة في مفردها دقيق، استعمالها مجموعا كذلك دقيق. (راجع: السامرائي، نفسه: ١١٦) قال تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ**﴾ (القرآن، ٢٣: ١٥) و﴿**أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ / إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وما نَحْنُ بِمُعَذَّبِين**﴾ (القرآن، ٣٧: ٥٨ و٥٩)

ج) الحقيقة / المجاز (الرؤيا / الواقع)

الرؤيا:

إن الرؤى والأحلام من المواضع التي للسياق فيها دلالة على كون الفعل غير حاصل على أرض الواقع، فقد يكون فيما بعد يقع ويعبّر فعلا وقد لا يقع، ومن الشواهد عليه ما يلي:

ساجدين/ سجّد: بعض الاستعمال القرآني في جمعي السلامة والتكسير مما يرتبط بالرؤيا والواقع أو الحقيقة والمجاز، فنرى بالنظر إلى الآيات أن الرؤيا والمجاز يستعمل لهما الجمع السالم، فكأنه إذ ليست الرؤيا والمجاز في عالم الواقع وعلى صعيد الحقيقة فإنما يدل على حدوث دون ثبوت في مثل "ساجدين" في رؤيا يوسف عليه‌السلام، حيث قال لأبيه عما رأى في المنام: ﴿**رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ**﴾ (القرآن، ١٢: ٤) واستعمل سالما، ولكنه عندما حدث الأمر في الواقع قال: ﴿**وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً**﴾ (القرآن، ١٢: ١٠٠) استعمل جمع التكسير حيث ثبت لهم السجود والطاعة والانقياد له في الواقع.

ب) سنبلات / سنابل: استعمال الجمع السالم في ما يرتبط برؤيا الملك في: ﴿**سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ**﴾ (القرآن، ١٢: ٤٣ و٤٦) واستعمال الجمع المكسر عندما يذكر عن حقيقة الإنفاق في قوله: ﴿**كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ**﴾ (القرآن، ٢: ٢٦١) وكلاهما لسبع من السنبل يدل على أن الرؤيا في قوله تعالى تقتضي السالم ليدل على كونه غير حقيقي فقلة.

التشبيه:

من أمثلة التشبيه الذي يدل على قلة المشبه كما ونوعا بالنسبة للمشبه به في التعبير القرآني ما يلي:

راسيات / رواسي: لقد تقدم بنا أن الرواسي على التكسير يطلق في القرآن على الجبال، وهي كثير مجيئها في الآيات، ولكن الراسيات التي استخدمت مرة واحدة في مقام القدور الثابتات الشبيهة في الارتفاع والثبات بالجبال الرواسي، لم يجمع سالما وإنما جاء مكسرا.

د) عام / خاص

هناك مواضع من استعمال الجمعين أنا نواجه بعض الفروق الدقيقة التي تنمّ عن العموم والخصوص، والمراد من العام والخاص هو الذي يفهم من لفظه والذي حدّده العلماء من أن العالم الذي يشمل جميع ما يقع تحته، ويقابله الخاص، قال السيوطي: «العام لفظ يستغرق الصالح له، من غير حصر» (السيوطي، ١٩٩٦، ٢: ٤١). من الأمثلة على هذا العنوان ما يلي:

العالمون/ العلماء: إن التدقيق في استعمال مادة العلم وما أتى وصفه في التنزيل العزيز يوحي بأن الجمع المكسّر الذي جاء في آيتين من القرآن الكريم استعمل استعمالا خاصا بالقرآن، يقول: ﴿**أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ**﴾ (القرآن: ٢٦/ ١٩٧) ﴿**وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ (القرآن: ٣٥/ ٢٨) إلى جانب بعض الدقائق الأخرى مثل الوصفية والاسمية، فالعلماء يطلق على العالمين بوجه خاص، بالإضافة مثل علماء بني إسرائيل، أو بغيره، وقد يستعمل للإطلاق عندما يتحدث عن الذين تثبتوا في العلم.

أما العالمون بلفظ جمع السلامة فهو إما مقيد بما يُعلَم أي متعلق العلم، وإما يدلّ على العلم بكونه وصفا لهم بهذه الصفة، أما المكسر فللإشارة إلى طائفة يسمّون كذا، فالعالمون فيه دلالة على كل من له علم ويمارس العلم، ويعمّ جميع من يعنَون بالعلم، قال تعالى في مواضع العلم بشيء لفظ السالم، مثل: ﴿**قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ**﴾ (القرآن: ١٢/ ٤٤) وكذلك في سياق الحديث عن الذين من صفتهم الاعتناء بالعلم –من العلماء المصطلح كانوا أم لا– استعمل لفظ

السالم، منها: ﴿**وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ**﴾ (القرآن: ٢٩/ ٤٣) و ﴿**وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمينَ**﴾ (القرآن: ٣٠/ ٢٢). كما ولما وصف ذاته بالعلم، جاء سالما، وهو أولى بالإطلاق وعدم التقييد في العلم المصطلح، فقال: ﴿**وَ كُنَّا بِهِ عالِمينَ**﴾ (القرآن: ٥١/٢١) ﴿**وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمينَ**﴾ (القرآن: ٨١/٢١)

الساحرون / السحرة: ومن أمثلتها عمومية إطلاق الجمع السالم من الساحر وخصوصية السحرة في الجمع المكسر، حيث نرى أنه إذا كان الكلام على عامة الساحرين ووصفهم بفعل السحر يطلق عليهم "الساحرون" سالما،قال: ﴿**قالَ مُوسى أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هذا وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ**﴾ (القرآن: ١٠/ ٧٧) وهو موضع واحد استخدم اللفظ جمع سلامة.

ولما تكلم عن الذين عرفوا بالسحر وكانوا أهل السحر المشتغلين به وهو مهنتهم وحرفتهم، سمّوا بالسحرة على وجه الخصوص، كطائفة خاصة، وهو الاسمية نفسها التي ذكرناه سابقا، فقال تعالى في من يسحر لفرعون مقابل موسى (عليه‌السلام) السحرة، وقد جاء على هذا البناء في ثمانية مواضع، منها: ﴿**لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ**﴾ (القرآن: ٢٦/ ٤٠) فهؤلاء سحرة فرعون خاصة المهتمون بهذا المحترفون فيه.

النبيّون / الأنبياء: النبيّ على وزن الفعيل إما بمعنى الفاعل أي المخبِر عن الله وإما بمعنى المفعول أي المخبَر بشيء، (راجع: قرشي، ١٣٧١ش، ٧: ٧) فعليه يمكن القول في الفرق بين هذين اللفظين – والله أعلم– أنّ الأنبياء جمع النبيّ بمعنى المفعول أي الذي أُنبِئَ وأُخبِرَ، فكأنهم ليسوا مكلفين بتبليغ ما تلقّوا من الوحي، وأكثر ما قيل عنهم قتل الناس لهم، فقال: ﴿ **ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍ**﴾ (القرآن: ٣: ١١٢) وإن قيل على هذا: لماذا كانوا يقتلون الأنبياء ولم يكن لهم إبلاغ وحكم، قلنا: إذ ﴿**إنهم أناس يتطهرون**﴾ (القرآن: ٧: ٨٢)

ولكن النبيين كما نجد سياق الآيات لهم الحكم والبعث والتبليغ، فقال: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ**﴾ (القرآن: ٥/ ٤٤) وقال: ﴿**كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فيمَا اخْتَلَفُوا فيهِ**﴾ (القرآن: ٢: ٢١٣) وقال: ﴿**وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ**﴾ (القرآن: ٣/ ٨١) وعدّ النبي (صلى الله عليه وآله) من النبيين فقال خاتم النبيين لا خاتم الأنبياء، فقال: ﴿**ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَليماً**﴾ (القرآن: ٣٣/٤٠) فالأنبياء أنزل درجة ثم يأتي مرتبة النبيين، ثم الرّسل.

العامل الثالث: العامل النحوي

من العوامل التي يمكن أن تكون سببا وعاملا في اختيار أحد الجمعين هو العامل النحوي أي الذي بتأليف الجملة وعند التركيب يوجب اختيار أحدهما على الآخر، ليس العامل الدلالي أوالصوتي أو غيرهما، ومن الأمثلة على هذا ما يلي:

خاشعون / خُشَّع: إن جميع ما استعمل من مادة الخشوع في القرآن –على حد رواية الحفص– على صيغة السلامة –تذكيرا تأنيثا– إلا في آية واحدة في سورة القمر، حيث قال تعالى: ﴿**خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ**﴾ (القرآن: ٥٤/ ٧) فالمواضع التي استخدمت فيها الجمع السالم من الخشوع، فليست لأنها تدل على قلة إذ هو من الصفات لا الأسماء الجوامد، وإنما فيه دلالة على الفعلية حدوثا كان أم لا.

في ثلاث آيات جاء الخشوع مسندا إلى الأبصار، وفي اثنتين منها استعمل الوصف مفردا "خاشعة أبصارُهم" ﴿**خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**﴾ (القرآن: ٦٨/ ٤٣؛ و ٧٠/ ٤٤) والموضع الواحد الذي جاء الخشوع فيه جمعا مكسرا هذا الذي نحن نتناوله في سورة القمر، أي "خُشّع"، فإذ جاء بلفظ الجمع وكان الأصل أن يكون مفردا حيث عمل في ما بعده بالفاعلية، فكيف لم يجئ على جمع السلامة وجاء مكسّرا؟ هذا هو السؤال.

أما هذا القول فيمكن الرد عليه رديّن؛ أحدهما في مجيء الجمع دون الإفراد «فلأن الجمع موافق لما بعده، وهو أبصارهم، وموافق للضمير الذي هو صاحب الحال في يخرجون، وهو نظير قولهم: مررت برجال كرام آباؤهم.» (الأندلسي،١٤٢٠ق،١٠: ٣٧) إلا أن الزمخشري جعل "خشّعا" على يخشعن أبصارهم، على لغة من يقول: أكلوني البراغيث، وهم طيء. (الزمخشري، ١٤٠٧ق، ٤: ٤٣٢) ولكن أبوحيان قد خطّأه بأنه «لا يجري جمع التكسير مجرى جمع السلامة، فيكون على تلك اللغة النادرة القليلة. وقد نص سيبويه على أن جمع التكسير أكثر في كلام العرب، فكيف يكون أكثر، ويكون على تلك اللغة النادرة القليلة؟ وكذا قال الفراء حين ذكر الإفراد مذكرا ومؤنثا وجمع التكسير، قال: لأن الصفة متى تقدمت على الجماعة جاز فيها جميع ذلك، والجمع موافق للفظها، فكان أشبه. انتهى. (الأندلسي، نفسه)

والقسم الثاني من الرد وهو الرد على سبب الإتيان بجمع التكسير دون السلامة فأردف مؤلف البحر المحيط بأن الكلام ليس خارجا عن الكلام المعياري المستعمل عند العرب بكونه جمعا مكسرا، «وإنما يخرج على تلك اللغة إذا كان الجمع مجموعا بالواو والنون نحو: مررت بقوم كريمين آباؤهم.»

(المصدر نفسه). وهذا كما رأينا ردّ نحوي يرتبط بتأليف الكلام وإخراجه على اللغة المعيارية المطابقة للنحو العربي عند جمهور العرب.

العامل الرابع: العامل الصوتي

قد يضطر العربي البليغ في سوق كلامه أن ينظم المفردات حسب ما يقتضيه الإيقاع والوزن، بل وقد يضطر إلى الإتيان بلفظ على غير قياس؛ كما نرى في الغدايا والعشايا، فقد «يخرجون الكلم عن أوضاعها لغرض الازدواج فيقولون –مثلا– آتيك بالغدايا والعشايا مع أن فيه ارتكابا لما يخالف اللغة.» (السامرائي، ٢٠٠٧: ١١٦؛ نقلا عن الزركشي، ١:٧١). هذا القول الذي نقله السامرائي في الضرورة الشعرية خاصة، ولا نعتقد أبدا –وهذا شأنه هو كذلك– أن يكون القرآن قد اختاره عن اضطرار لغوي وضيق، فهو سبحانه منزه عنه.

ولكن بما أن القرآن كلام إلهي في ألفاظ يصطلح عليها الناس يستعملونها ويفهمونها فهو جرى مجرى كلامهم وعلى سبيل لغتهم وقاعدة أدبهم، بيد أنه في ذروته وأوجه. ونرى بعض اللغويين يشيرون إلى دقائق لغوية بين المتقاربين في المعنى عبر الإفادة من الخط أو الصوت ونحوهما، فأبوعلي الفارسي وهو من أئمة اللغة والنحو سئل عن الفرق بين الماتح والمايح وكلاهما بمعنى الاستقاء من البئر، فقال: هما كإعجامهما، يعني أن التاء بنقطتين من فوق وكذلك الماتح لأنه المستقي فهو فوق البئر والياء بنقطتين من تحت، وكذلك المايح لأنه تحت في الماء الذي في البئر يملأ الدلاء» (ابن أبي الحديد، ١٤٢٦ق، ١: ٢٢٦)

ومن اللغويين المعاصرين الذين اعتنوا بهذا الأمر العلامة المصطفوي حيث يقول في الفرق بين العبيد والعباد من جموع التكسير للعبد: «فانّ الفرق بينه [العبيد] وبين العباد: هو فرق الألف والياء، فالألف يدلّ على ارتفاع كما أنّ الياء يدلّ على انكسار وانخفاض.» (المصطفوي، ١٤٣٠ق، ٨: ١٧)

والعامل الصوتي يمكن أن يكون في الحروف وما تدل عليه من الدلالة الصوتية من اللين والشدة والارتفاع والانخفاض وما إليها، أو في الموازنة والسجع مما يمتّ إلى الإيقاع بصلة ما، وهذا يمكن أن يوجد في فواصل الآيات.

فالمثال على هذا يمكن أن يكون في الساجدين والسجّد عند الكلام على سجود السحرة طائعين مؤمنين حيث جاء هذه القصة بصور ثلاث تكاد تكون واحدة في جميعها و السياق بينها جميعا مشترك، فقال في موضعين متشابهين تماما في اللفظ: ﴿**أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدينَ**﴾ (القرآن: ٧/١٢٠؛ ٢٦/

٤٦) في الأولى مبدوءا بالواو والثانية بالفاء. أما الموضع الآخر فقال: ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى**﴾ (القرآن:٢٠/ ٧٠). نرى السياق واحدا والقصة واحدة، إلا أنه جاء في الاثنتين منها ساجدين جمع سالم، وفي الأخيرة سجّدا جمع مكسّر. فقد يكون –والله أعلم– لأجل الموازنة بين فواصل الآيات.

الخاتمة والاستنتاج

اختيار القرآن للألفاظ دقيقة بحسب العوامل والأسباب المختلفة يجب الانتباه إليها والسعي إلى الكشف عنها وأنواع الجمع سالما ومكسرا من هذه الدقائق. من العوامل المؤثرة في اختلاف صيغ الجمع أربعة عوامل، العامل الدلالي، المنهج الخاص للقرآن، العامل النحوي، العامل الصوتي. من الممكن أن تتعدد العوامل في إيثار أحد الجمعين في مفردة واحدة على الآخر، فيكون لفظ بسبب أكثر من عامل يجمع على تكسير أو سالم. العامل الدلالي ينقسم –دون حصر– إلى الكثرة / القلة، الفعلية /الاسمية.

المنهج القرآني الخاص في استعمال المفردات بدقائق سياقية – لغوية من العوامل الهامة في اختيار المفردات إفرادا وجمعا، ويمكن تقسيمه إلى بالقوة/ بالفعل، الحقيقة / المجاز (الرؤيا / الواقع)، العام / الخاص وغيرها. هناك منهج قرآني خاص في اختيار المفردات والجمع خاصة، منه استعمال الجمع المذكر السالم عند ما يصف الله نفسه على التعظيم ولم يأت بالمكسر. العامل النحوي هو تركيب الألفاظ عند الجملة وتأليف العبارات القرآنية حسب القواعد. العامل الصوتي من العوامل التي اختارها بعض اللغويين لتبيين الفروق بين المفردات، ومن الممكن أن يكون الموازنة والسجع في فواصل الآيات مما تسبب في اختلاف صيغ الجمع.

المصادر

ابن أبي الحديد المعتزلي، عزالدين أبي حامد عبدالحميد بن هبة الله (١٤٢٦ق)، *شرح نهج البلاغة*. تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم، بغداد: دارالكتاب العربي.

ابن سيده، على بن اسماعيل (١٤٢١ق)، *المحكم و المحيط الأعظم*. تحقيق: عبدالحميد هنداوى، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن عاشور، محمد بن طاهر (١٩٨٤)، *التحرير و التنوير (تفسير ابن عاشور)*، بيروت: موسسه التاريخ.

ابن يعيش، موفق الدين يعيش (.)، شرح المفصل. دمشق: إدارة الطباعة المنيرية.

أبوحيان الأندلسي، محمد بن يوسف (١٤٢٠ق)، *البحر المحيط فى التفسير*، تحقيق: صدقي محمد جميل. بيروت: دار الفكر.

الدوري، محمد ياس خضر (٢٠٠٦)، *دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني*. بيروت: دار الكتب العلمية.

الراغب الاصفهاني، حسين بن محمد (١٤١٢ق)، *مفردات ألفاظ القرآن*، تحقيق: صفوان عدنان داوودى. بيروت: دار القلم.

الرضي الاسترابادي، رضي الدين محمد بن حسن (١٩٨٢)، *شرح شافية ابن الحاجب*. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد وآخران، بيروت: دار الكتب العلمية.

الزمخشري، جار الله محمود (١٤٠٧ق)، *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل*. بيروت: دار الكتاب العربي.

ـــ (٢٠٠٤)، *المفصل في علم العربية*. تحقيق: فخر الدين قدارة، عمان: دار عمار.

السامرائي، فاضل صالح (٢٠٠٧)، *معاني الأبنية في العربية*. عمان: دار عمار.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (١٩٩٦)، *الإتقان في علوم القرآن*. تحقيق: سعيد المندوب لبنان: دار الفكر

الشايع، محمد (١٩٩٣)، الشايع ، *الفروق اللغوية وأثرها فى تفسير القرآن*. رياض: مكتبة العبيكان.

الصادقي الطهراني، محمد (١٣٦٥ش)، *الفرقان فى تفسير القرآن بالقرآن و السنة*. قم: انتشارات فرهنگ اسلامى.

الطباطبائي، سيد محمد حسين (١٤١٧ق)، *الميزان فى تفسير القرآن*. قم: دفتر انتشارات اسلامى جامعهى مدرسين حوزه علميه قم.

الفيومي، احمد بن محمد (١٤١٤ق)، *المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى*. قم: موسسه دار الهجرة.

قرشي سيد على اكبر (١٣٧١ش)، *قاموس قرآن*. تهران: دار الكتب الإسلامية.

المصطفوي، حسن (١٤٣٠ق)، *التحقيق فى كلمات القرآن الكريم*، بيروت- لندن - قاهره: دار الكتب العلمية- مركز نشر آثار علامه مصطفوي.